



اركان التفكير الصحيح

اساليه وعبوبه

ليس البق بالانسان ، على ما اعتقد ، من نمت بنت الحيوان لتفكر . فليس هنالك ، على التحقيق ، من صفة مفردة تجعل الانسان يقف هذا الموقف المنزول وتميزه بهذا التمييز الواضح العالم ، في عالم الحيوان ، كهذه الصفة - صفة التفكير . واختلافه فيها عن الحيوان هو اختلاف كيف لا اختلاف كم ، على ضد باقي الصفات التي يشترك فيها والحيوان على درجات من التفاوت . فالانسان ليس بالحيوان الاجتماعي الفد ، كما يريد البعض ، وهو ليس بالحيوان الناطق الوحيد ، كما يريد البعض الآخر ، فان كثيراً من الحيوانات له ، على وجه التسميم ، شيء من احدى هاتين الصفتين او من كليهما قل او اكثر هذا الشيء . اما ان الانسان هو الحيوان المفكر الوحيد فهذا لا شك فيه . على ان هذا لا يعني ان كل انسان ، بحكم الضرورة ، يفضل الحيوان من هذا القبيل . فان كثيرين ممن سمعت افهامهم واعتلت مداركهم يقفون مع الحيوان عند درجة الادراك الحسي ، فلا يفضلونه في شيء ، ويفضلهم في اشياء . وثم فئة اخرى لا تحب ان تجسم نفسها مشقة التفكير الصحيح تسير في ادمت الطرق واللين المسالك ، وهو صنف شائع في كثير من الامم والطبقات . ولكن بالرغم من هذا كله فان الانسان بطل ، بما اخص به من مواهب التفكير ، كائناً منزل النظر . فالبحث في التفكير يبحث في اسمى الصفات الانسانية واجلها خطراً

اسلوب التفكير

التفكير من حيث الاسلوب ، على نوعين : التجريبي والعلمي . اما الاسلوب التجريبي فهو الاسلوب الذي سار عليه علماء الشرق القديم عصوراً طويلة . وهو علة البطء في تقدم العلوم طيلة هذه العصور بالنسبة الى امتاع المدة . ان علماء الشرق استطاعوا التنبؤ عن اوقات الخسوف والكسوف ، ولكن دون ان يدركوا السعة الطبيعية لتلك ، وقدروا ان يضبطوا الى حد كبير من الدقة ، حركات القمر والشمس والسيارات ، ولكن دون ان يفهموا ذلك النظام الشامل الذي يهيمن على حركات هذه الاجرام . وقد اهدى هؤلاء العلماء الى هذه الحقائق من الملاحظات المتكررة بكثر هذه الظواهر . فالراجح الذي يهدي اليه الاستقراء انه لم يتمكنوا من تبيين اوقات الخسوف

والكسوف الأبد ان تكررّت هذه عشرات المرات ، ولذا لم تكن مرفهه في هذا الشأن نتيجة لدرس المنظم والتقييد العلمي ، بل نتيجة للمصادفة والمشاهدة المجرّدة عن التفكير المنجي على مقومات اذا اجتمعت لا بد ان تؤدي الى نتيجة معينة كما هو معلوم وكان علم الطب يسير على هذه الطريقة فقد علم الاختيار وطول المارسة اطباء هذه الطريقة ماذا تكون النتيجة لبعض الامراض دون ان يفقهوا لذلك سبباً تركن اليه النفس

هذه هي الطريقة التجريبية وهي وان صدقت في كثير من الاحيان لها عيوب كثيرة. فهي توجب ان يكون كل ما يتكرر حدوثه بعد حدوث امر آخر نتيجة لازمة له ، وناشأ عنه مباشرة ، في حين قد يكون السبب الحقيقي غير ما يظن انه السبب مثال ذلك أنه لمهد قريب كان الاعتقاد السائد ان حمى الملاريا ناشئة عن هواء المستنقعات ، وذلك لما كان يرى من شديد الصلة بين وجود المستنقعات في قطر ما وتفتي هذا الداء فيه . والامثلة من هذا النوع كثيرة في عالم الطب وغيره . ومن عيوب هذه الطريقة انها تقود الى الكسل والحلول . وتأثيرها اللبيء في الدماغ يفوق خطورة تأثير النتائج المملوطة التي قد يتوصل اليها العقل عن طريقها . وذلك ان التفكير بحسب هذه الطريقة يسير في جادة واحدة في جميع الاحوال المتشابهة ، مما ينتهي بزوال المشقة التي كانت ترافق التفكير في ادواره الاولى ، على نحو ما يفضل النهر في تكوّن نه اذ يكون في بده تكوّنه محتاجاً الى الشفط والقوة حتى يشق له طريقاً في الأودية والسهول ثم يأخذ يسير سيراً هادئاً بطيئاً . وما يرافق هذه الطريقة البطء . فالتا اذا كنا لا نود تقرير قواعد الحسوف والكسوف إلا بعد ان تتكرر هذه عشرات المرات فالتا محتاج الى وقت كثير وحصر طويل للوصول الى النتيجة التي يحصل عليها الفلكي في هذه الايام في بضع دقائق باستعمال حساباته الدقيقة وقواعده الشاملة

﴿الاسلوب العلمي﴾ ما هي اركانه وما هي مقوماته ؟ هذان سؤالان اذا اجابنا عنهما تكون قد رسمنا صورة مجمة لهذا الاسلوب الذي يصح ان يطلق عليه اسلوب العلم الحديث كالاسلوب التجريبي ، يبدأ هذا الاسلوب بحاجة نفس ، او وضع يرغب في تغييره او ظاهرة يراد اجتلاؤها ، او هدف يسعى اليه . ثم يتلو هذا سلسلة من الجهود تصرف في الدرس والتقييد وجمع الحقائق التي يرجى ان تعد الطريق للوصول الى هذه الرغائب ومن ثم يرى هل فيها جمع وما درس ما يصح ان يكون اساساً لترض او تصم او نظرية او غير ذلك من ضروب الاستنتاج . فاذا وافق الى شيء من ذلك ، فالتا تنتقل الى دور التطبيق وهو ان يؤدي بالاستنتاج ، ويرى ماذا يمكن ان يحدث اذا طبق تطبيقاً فعلياً على احوال معسوسة فاذا احتبر هذا الاستنتاج وكانت نتائج الاختيار كالتوقع فيحكم بصحة

الاستنتاج أو أنه أكثر تقيداً مما كان يظن ، أو أن الاستنتاج كان خاطئاً في ذاته . ولكي تؤمن بمغنة الزلل في التفكير على هذا الأسلوب يجب ان تتخذ حجة احتياطات منها ان يعيد النظر في الاستنتاج اشخاص غير الذين توصلوا اليه لأول مرة ، فبمقدار ما بين النتائج التي توصل اليها الباحثون جميعاً من التشابه ويكون ذلك مقياساً لصدق الاستنتاج ومن هذه الاحتياطات ما يدعى بالاختيار المتقيد وذلك ان يجتهد ، لدى اجراء الاختبار لقياس صحة الاستنتاج ، في ابقاء جميع العوامل التي يتكون منها هذا الاستنتاج ثابتة ما عدا واحداً ، فلاحظ عندئذ نتيجة التغير في العامل الواحد بوضوح ام بما لو كان الاختبار تتغير فيه جميع العوامل في وقت واحد . وبما يحتاط به ايضاً ان يعيد الاختبار شخص غير المختبر الأول ، فينظر في النتائج التي وصل اليها كما انه يجب الا تهمل ما يظهر لنا من شذوذ في ضبيعة الاختبار ، مهما يكن نوعه ومهما يكن طفيفاً فقد يكون هذا الشذوذ ناجماً عن عامل غير الذي يظن انه سبب للنتيجة الاجمالية

بما تقدم يتضح لنا ان الاختبار هو اهم دعامة في الاسلوب العلمي ، بل هو على المحصر الاسلوب العلمي بذاته . واهميته تظهر جلية من ان كثيراً من النظريات التي كانت تظن انها خالدة قد دكت دكاً لدى عرضها عليه . مما يحكى عن اديسن انه كانت له ثلاثة آلاف نظرية مختلفة في الضوء الكهربائي ، وكل من هذه النظريات كان يبدو معقولاً بمقد ذاته ولكن حينما كان يسلط على احدي هذه النظريات نار الاختبار كانت تدوب كما يدوب الثلج في وهج النار ولم يثبت على الامتحان الا نظريتان من كل هذه النظريات فتأمل

عوائق التفكير الصحيح

اذا شئنا تعداد هذه العوائق واحداً واحداً يضيّق بنا المقام، ولذا فإتانا سنقتصر على ذكر ما نلظنه الاممها . من هذه العوائق خطأ القضية المراد بحثها خطأ أساسياً فتد يطلب منك تمثيل ظاهرة لا أساس لها او حل معضلة مبنية على خطأ في المشاهدة ، فتنبأاً تمحلل من التفسير لا يوضح هذه الظاهرة ، وتجرب من الحلول لحل هذه المعضلة ما يسترقك وتقاطربلا ، ويستند منك جهوداً كثيرة على غير طائل وكثيرون يذكرون قصة الملك شارل مع الجمعية الملكية حينما سأل اعضاءها في البييل الذي من اجبه لا يزيد نقل السمكة الماشية في نقل الدنو الماشية فيه فشرع اعضاء الجمعية من حينهم يحثون عن السبب لهذه الظاهرة الجبية بكل جد ووصانة والمائق الآخر هو التمسك في الرأي . وضرر هذا اليب الفكري لا يقف عند حد . ان المصاب به يصم اذنيه عما لا يوافقه من آراء ومعتقدات ، وان تكن صحيحة ، بل هو يبدو فلك الى ان المصاب به يصب عليه ادراك تلك الآراء والمعتقدات ادراكاً صحيحاً .

ذلك ان المتصلب في آرائه يصب عليه ادراك مواطن الضعف في هذه الآراء — على حد قولهم : عين الحب عمياء — كما انه لا يمكنه ان يدرك مواطن الاجادة في آراء غيره . وبما يصحب هذا الصيب انه يملكنا غير شاعرين به ، فقد يتوهم أحدنا انه من أكثر الناس تساهلاً في آرائه ، ومن أنزلهم على حكم العقل ، وهو مع ذلك تجهده من اشد المحافظين ومن أكثرهم تصلباً في آرائه . ومن هنا ، على ما اعتقد ، ما ترام في قوم يدعون الى التجديد ، وهم من اشد الناس محافظة واكثرهم جمود فكري . والتصلب في الرأي يُفسر من وجهة بيكولوجية في ان رد الفعل الواحد اذا طال تكررُه يتركز أثره في ذهن الانسان بما يحدثه من تغير في خلايا الدماغ . فتتمذر ازالة هذا الاثر . ولعل هذا هو سر المحافظة والرجعية في المتقدمين في السن

ومن عوائق التفكير الصحيح ايضاً عدم المقدرة على تأجيل الحكم في شأن من الشؤون قبل ان يندو تام الجلاء . وخطورة هذا الشرط تبدو واضحة من ان كثيراً من الاخطاء الفظيعة ، في مختلف العلوم والفنون ، كان ناشئاً من عدم المقدرة على تأجيل الحكم . وتلك طبيعة مركوزة في الانسان لا يطبق عليها صبراً . ففي الانسان شهوة عيفة ورغبة ملحة في تفسير ظواهر الطبيعة على الشكل الذي يلائم ومستقداته وتركن اليه نفسه وليست هذه صفة الانسان الحديث فقط ، بل هي احدى صفات اجداده في اقدم اطوار حياتهم ، حينما نسبوا البرق والرعد الى غضب الآلهة ، والنظر والحصب الى رضاها وتمت مصدر آخر للخطأ في التفكير وهو الجري مع الالهواء ، فقد تكون من الزكاة وحصافة الرأي على شيء كثير ، لكن حكم العاطفة قد يصدك في مواقف كثيرة عن استتار مراهك في الطريقة التي وعلى الوجه الأصح

والتعويل على ارباب الشهرة مصدر آخر للخطأ في التفكير فقد ترفض رأياً صائباً لاحد الاوصاف لا لملقه الا ان احد الفصحاء قال ما يخالفه . وما قرأه في كتب التاريخ عمن لا قوا من الاضطهاد اشدّه ، ومن التمديب آله ، بسبب جهرم بما يخالف ما قاله اربطو وغيره من قدماء الفلاسفة والمطمين ، شيء كثير

وعيب آخر هو الميل لتقدير قيمة اشكورة بنيتها . يحكى عن فوثير انه عند ما وجدت بعض الاسماك المتحجرة في جبال الالب حاج حاجبه ، لظنه ان ذلك قد يكون اتياناً لما جاء في العهد القديم بشأن الطوفان ، مما اجأه الى تفسير السبب في وجود هذه الاسماك في ذلك المكان تفسيراً مضحكاً ، وذلك بقوله : اما السباح قد اتوا بها الى هناك ولا حوال الشخص الصعبة اثر اي اثر في توجيه تفكيره . فالسقيم لا يمكنه ان يرى

الاشياء في وضعتها الاصلي ونسبتها الطيبة. وهذا مشاهد جلياً في المستشفيات والمارسات ذات ودور العجزة . وما يذكر في هذا انما هو ان اكثر المتشاكين لم يكونوا في صحة جيدة وان طائفة كبيرة منهم كان مصاباً بماهات خلقية كالمرج والكبح والعمى وغير ذلك

ومن العيوب الشائعة في طرائق التفكير — على الاخص في هذا العصر — الحكم على الكتاب بمقدار ما يحويه من حقائق — ايما كان نوعها . وعلى هذا فكتاب يؤلف في فن السباحة او فن الطبخ يستحق من عنايتنا اضعاف ما تستحقه الياذة هوميروس وروايات شكبير وأشعار العري الاكلا . ليس الامر كذلك ، بل ان افضل ما ينفذه المرء من قراءة المؤلفين ليس اخترانه مواد كتبهم في الذاكرة للباهاة بها ، كما يفعل عدد ليس بالقليل من مطالعي الكتب ، بل ان يعود أساليبهم في التفكير وكيفية معالجتهم لموضوعات درسمهم — هذا إذا كانوا عن بصح الاقتداء بهم . فاذا كنت تقرأ لا ليقال عنك انك انكاريديا متحركة ، وكان من تطالعهم بيدي النور ، نافذي البصار ، فأحر بك ان تكتسب هذه الصفات منهم ، لكن بالكثير وليس بالاشفاق ، كما لو أدت قضيئاً مختطاً من آخر لا منطعية فيه ، دون ان تلمسه يد ، فتصبح طريقتهم في مهاجمة الموضوعات طريقتك ، وتطبع أساليبهم في ذهنك ، وقوتهم ، الى حد ما ، تضحي قوتك فكما انك اذا حاولت ان تترسم جباراً في مشيه فتتود الخطوط خطأً واسعاً ، كذلك القارئ الذي يتبع المؤلف الفذ يجد نفسه أوسع خطأً في عالم الفكر

وآخر ما نذكره من عيوب التفكير هو ان كثيرين لا يضعون لتفكيرهم هدفاً جلياً ، بحيث يكون كل جهدياً ثونه مما يساعدهم على بلوغ هذا الهدف ، بل تراهم يندفون هنا تارة وتارة هنالك كالسيفنة تقاذفها هوج الرياح . فقد يس على بال أحدنا ان يكتب شيئاً ، ولكن لا يدري حول اي شيء يكتب هذا الشيء ، فيذهب بكثرة الذهن ويقفب الكتب على خلاف طائل . على ان جلاء الهدف وحده لا يكفي لكي ينتفع المرء باقصى ما لديه من جهد ، فان تقدير المدى لهذا الهدف امر آخر يستحق ان يعطى من عنايتنا اكبر قسط . فالواقع ان هناك اناس لا يحسنون تقدير ملكاتهم بدقة : فهم بين ان يرفسوا اهدافهم الى حد لا يكون بطوقهم ان يصلوا اليه مها جهدوا ، أو ان ينزلوها الى حد لا يستغز اقصى قواهم ، ويلوح لي ان التمرن المتواصل هو خير ضامن لايقاف المرء على صفة الخيز الذي يمكنه ان يشغله في أي شأن من شؤون الحياة . وقد يؤخر التمرن الزمن الذي تستوفي فيه الكفاءة حظها من الضوج ولكنه لا يد بالغ بها حداً معيناً لا يكون لها مضطرب الأ فيها هو دونه ، فلا تخطاه ابدأ